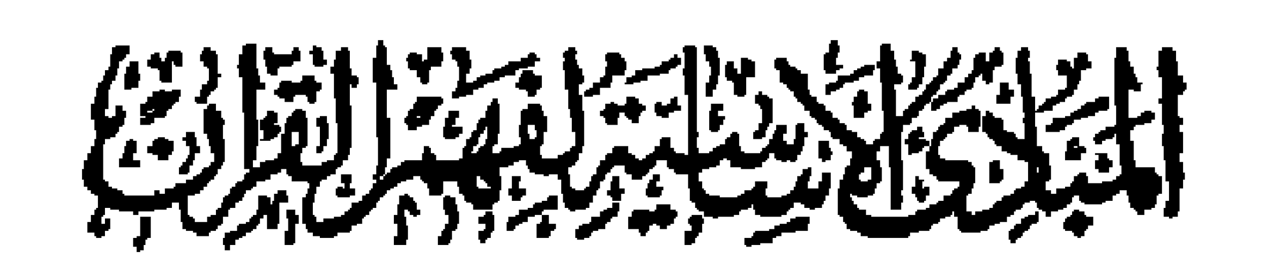
أبو الأعلى المودودي

مبادئ أساسية لفهم القرآن




المبادئ الأساسية لفهم القرآن

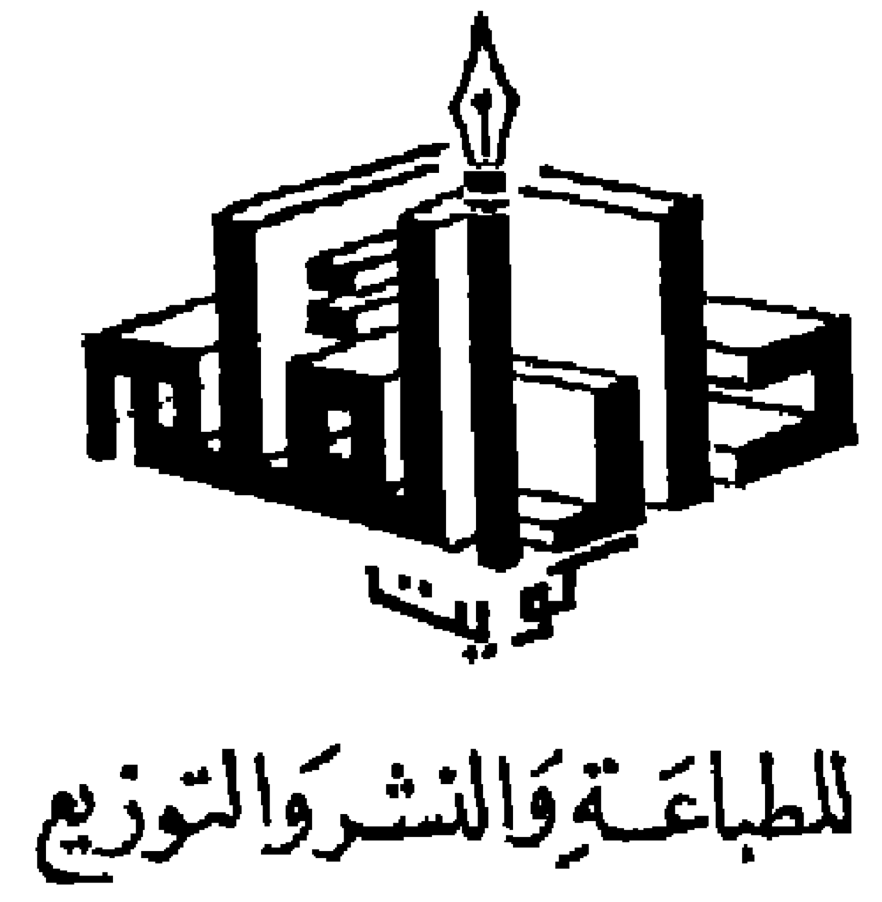
الطبعة الثالثة

١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

أبو الأعلى المودودي



تعريب : خليل أحمد الحامدي



للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

نتشرف بتقديم بحث طريف ممتع إلى القارىء العربي الكريم في موضوع جليل وهو موضوع طريقة دراسة القرآن ، أخرجه مفكر إسلامي كبير : هو الأستاذ أبو الأعلى المودودي كتوطئة لتفسيره للقرآن الكريم الذي سماه : « تفهيم القرآن » والذي صدر منه حتى الساعة أربعة مجلدات من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الأحقاف .

وقد تناول الأستاذ الجليل حفظه الله في هذا البحث (المبادىء الأساسية) التي لا بد لكل من يريد فهم القرآن ، وبلوغ ما احتوى الكتاب الإلهي من كنوز وذخائر ، أن يتبناها ويجعلها منطلق دراسته ودليل رحلته في عالمه الشاسع الأطراف . وهي المبادىء التي إذا لم يلتزم بها دارس هذا الكتاب ولم يدخلها في قائمة الحساب حين دراسته لا يستبعد أن يخرج من دراسته وهو لم يهتد بهديه الذي جاء به ، ولم يتبين ما دعا إليه ، ولم يستفد من كنوزه التي انطوى عليها كل حرف منه . وموجز القول أنه لم ينل منه ما يصلح به دنياه وآخرته ، اللهم إلا نزر يسير يحالفهم التوفيق الإلهي فيأخذ بيدهم إلى بر الأمان . وقد

أخرج الأستاذ المودودي(هذه المبادىء) بعد أن قطع من عمره فترات طويـلة في الغوص في هذا البحر الذي لا نهاية له ، وسهل بذلك مهمة غيره من دارسي القرآن الكريم . عسى أن يجـدوا في هذه الرسالة ما ينير لهمالطريق إلى بلوغ روح القرآن ودعوته بإذن الله .

ان هذه الرسالة هي جزء من « تفهيم القرآن » كما أشرنا اليه وقد ترجمناه إلى لغة الضاد ، ونشرناه في رسالة مستقلة . وهي كذلك جزء من عملنا في ترجمة « تفهيم القرآن » نفسه إلى اللغة العربية ، حيث ننوي إصدار هذا التفسير باللغة العربيـة سورة سورة ،داعين المولى الكريم أن يأخذ بيدنا ويشد أزرنا ويكتب لنا التوفيق حتى نكمل هذا العمل الجليـــل في أحسن وجه وأقرب فرصة . عليه توكلنا وإليه ننيب .

حرر في ٨ من ربيع الثاني ١٣٨٨ هـ
الموافق ٥ من حزيران ١٩٦٨ م

كتبه العاجز
خليل احمد الحامـــدي
معتمد دار العروبة للدعوة الاسلامية
لاهور — باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين : وبعد ،

اسلوب الوحي واسلوب البشر في الكتابة :

إن الكتب التي ندرسها عامة نجد أن جميع ما فيها من معلومات وأفكار ودلائل يدور حول موضوع بعينه ، باسلوب تأليفي وبصورة منسجمة . ولأجل ذلك فالدارس الذي ليس له عهداً بالقرآن ، اذا أراد أن يدرسه أول مرة في حياته فإنما يتناوله وهو على ظن أنه باعتباره « كتاباً »

سيكون على غرار عامة الكتب التي تعوّد قراءتها ، قد حدّد موضوعه المنشود ، ثم قسّم هذا الموضوع الى أبواب وفصول . وكذلك يظن هذا الكتاب قد تناول كل شعبة من شعب الحياة الانسانية على وجه الاستقلال بالبحث والعرض ليسرد ما يتعلق بها من أحكام وتعاليم بترتيب متسلسل . إلا أن الدارس اذا بدأ يتصفح هذا الكتاب يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه ، فيجد أسلوباً لم يألفه من قبل ، إذ أنه يرى فيه المسائل العقائدية والتعاليم الخلقية ، والأحكام الشرعية ، والدعوة والنصيحة ،والعبرة والنقد، والزجر والتخويف والترغيب ، والحجج والشواهد ، والقصص التاريخية ، والاشارات الى آيات الله في الكون . كل ذلك يتكرر بيانه بين حين وحين ، ويُبدأ ويعاد بوجوه متباينة وأساليب منوعة . كما أنه بينما يطرق موضوعاً فاذا به يولي وجهه شطر موضوع ثان وثالث . بل يكون الأمر أغرب من ذلك ، حين يبتدىء موضوع ثم يتخلله موضوع آخر بغتة . كما يتبدل المخاطب والمتكلم بين حين وآخر ، وتتجه وجهة المحاورة الى جهات مختلفة مرة بعد أخرى .

أما تقسيم المواضيع والمباحث الى أبواب وفصول فلا عين له ولا أثر . وإذا نوقش فيـــه التاريخ لم يناقش على الأسلوب السائد لكتابة التاريخ . واذا سيقت البحـــوث حول الفلسفة وما يتصل بأمور ما وراء الطبيعـــة ، لم تسبق في مصطلحـات تختص ببحوث الفلسفة والمنطق . واذا ذكر الانسان وما في العالم من موجودات لم يذكر على منهج للعـلوم الطبيعية . واذا تطرق الموضوع الى شؤون المدنية أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع لم يسلك مسالك علم الاجتماع في البحث والتحميص . واذا أتى على ذكر من الأحكام القانونية وأصول التشريع لم يات بصياغة يعتادها أصحاب التشريع وعلماء التقنين في هـــذا المجال . واذا عرض تعاليمه في الأخلاق واستقامة السلوك رأيته يختار لها النمط الذي يغاير سائر ما كُتِبَ ودوِّن في هذا الباب .

إن الدارس إذا وجد هذا وأمثاله على غير ما ألفـــه من أساليب الكتابة وأنماط البيان ، وعكس ما تعوّده من مناهج التعبير تأخذه الدهشة ويبدأ يستشعر أن هـــذا الكتاب ينقصـــه الترتيب ويعوزه التنسيق . ويشكِّل من

أوله الى آخره مجموعة من شذور متناثرة وقطع مبعثرة جُمعت في عبارات متسلسلة وحلقات متماسكة .

أما الدارس الذي لم يؤمن بهذا الكتاب ، ولا يريد من دراسته إلا إثارة الشبهات ، فهو يجد في فقدان الترتيب والتنسيق متّسعاً لإثارة الاعتراضات المنوعة حول الكتاب. وأما المؤمن به والخاضع له فتتجاذبه المواقف والأطوار .

فمرة يغمض نظره عن المطالب خلال دراسته . وأخرى يطمئن قلبه بتفسيرات عديدة لانعدام التناسق الظاهري .

وثالثة يأتي بنتائج غريبة لمحاولته إيجاد وجوه للتناسق وذلك باجتهاد شخصي متكلف .

ورابعة يستسلم لفكرة « شذور متناثرة » فتصبح كل آية من آياته معزولة عن السياق العام . وتعود مسرحاً لابتكار المعاني التي تخالف ما يريده العزيز الحكيم .

معلومات أولية ضرورية :

ولكي تتحقق دراسة جديدة لكتاب من الكتب ، من

الضروري جداً أن يكون الدارس قبـــل كل شيء على معرفة بموضوع الكتاب ، وعلى علم مسبق بمقاصده وغايته المتوخاة والبحث الرئيسي فيــــه ، وعلى اطلاع بطرائق أسلوبه ، وعلى خبرة بمصطلحات لغته ونمطه الخـــاص في التعبير وأن لا يغيب عن نظره الأوضاع والملابسات التي تكمن وراء ألفاظه ونصوصه .

إن عامـة الكتب التي ندرسها نجد فيها الجوانب التي أشرت إليها بكل سهولة،ولذلك لا نلاقي صعوبةفي استكناه أسرارها وبلوغ مغزاها . ولكننا لا نعثر عليها في القرآن بالشكل الذى تعوّدناه في غيره من الكتب . ولذلك إذا بدأ يدرسه أحـد منا لعامـة الكتب فلن يستطيع التعرف في موضوعه وغايته وبحثـه الرئيسي ، وسيستغرب أسلوب بيانه وطراز تعبيره ، ويعزب عن نظره الملابسات الكامنة وراء ألفاظه في معظم المواضع .

ونتيجة لذلك فإنه يحرم من التوصـل إلى روح كلام الله ، ورغم استفادته قليـــلا أو كثـيراً من لآلىء الحِكَم

القرآنية المشرقة المتناثرة . وبالتالي يضطر الى الاكتفـــاء بحفنة من حكم مبعثرة ، وإلى اقتطاف قبضـة من زهور متناثرة بـدلاً من أن يلم بعلم الكتاب ويطول فيه باعه . بل إن بعض الناس الذين يقعون في شبهات وأخطاء بعـــد دراسة القرآن ، يعزى سبب ضلالهم الى أنهم قرأوا القرآن دون سابق إلمـام بالقواعد اللازمة لفهمه فصادفوا المباحث المختلفة المتنوعة متناثرة في صفحاته ، ولم يظهر لهم مغزى كثير من آياته ، ورأوا العديد من الآيات كأنهـــا جواهر تتلألأ بنور من الحكمة الربانية ، ولكنها فيما يبـــدو غير منسجمة مع سياق العبارة السابقة واللاحقة . وكثيراً مـا قذفهم جهلهم بأساليب القرآن التعبيرية ، وأنماطه البيانيـة إلى معانٍ غير مقصودة. كما وقعوا في ضروب من سوء الفهم لكثير من الآيات لأنهم ما عرفوا أسباب نزولها .

القرآن من أي أنواع الكتب ؟ وما هي كيفية نزوله ؟ وما هو سر ترتيبه ؟ وما هو الموضوع الذي يدور حوله كل نقاشه ؟ وما هي الغاية التي يتوخاها من بحثه ؟ ومـــا هو البحث الرئيسي الذي يحوم حوله جميع ما فيه من مباحث

منوعة ومواضيع مختلفة ؟ وأي لون من الاستدلال وأي نمط من البيان اختاره للتعبير عما يهدف إليه .

هذه وأمثالها من الأسئلة المهمة إذا وقف الانسان على الردود عليها في مطلع الامر فانه يستطيع أن يتفادى كثيراً من المخاطر والمزالق وهو بصدد دراسة القرآن . كما تتوسع في وجهه سبل فهمه وتدبُّره . ومما لا خلاف فيه أن الذي يريد في القرآن الترتيب التأليفي المتداول ثم يتخبط في صفحاته خبط عشواء إذا لم يبلغ ما يريد ، فإن مبعث تخبطه ومثار حيرته ليس إلا انه لم يتعلم ما لدراسة القرآن وفهمه من أصول وقواعد ولأنه بدأ يطالع القرآن ظناً منه أنه يطالع « كتاباً » موضوعه « الدين » ويكون في تصوره « للكتاب » و « للدين » على ما يكون في أذهان عامة الناس من تصور « للدين » و « للكتاب » بيد أنه حين يواجه في هذا الكتاب ما يختلف عن تصوُّره الذهني يجد نفسه لا تأنس إليه . ويظلّ يتيه بين دفتي الكتاب لعجزه عن معرفة نقطة الانطلاق في بحثه . ويكون مثله في ذلك كمثل النزيل الغريب الذي يهيم على وجهه في دروب

مدينة كبيرة . ويمكن أن يتفادى هذا الضيـــاع لو أخبر مقدّماً بأن الكتاب الذي يريد دراسته هو نسيج وحده في عالم التاليف . وتم « تاليفه » على نمط لم يتم عليـــه تاليف الكتب الأخرى . كما أنه فذٌّ فريد باعتبار موضوعه وبحثـه وترتيبه .

فالقالب العام للكتاب كما تتصوره نتيجـة دراستك للكتب والمؤلفات حتى اليوم لا يسعفك في تفهم هـــذا الكتاب أبداً ، بل يثير الحواجز دون طريقـــك . وإذا أحببت أن تفهمه ، عليك أن تبعد عن ذهنـــك كلّ ما أثبتّ فيه من تصورات وقياسات ، وأن تدرك ما لهـــذا الكتاب من خصائص بديعة ومزايا رائعة .

أصل القرآن :

يجب على قارىء القرآن أن يعرف قبـــل كل شيء « أصل » القرآن ، سواء آمن به أو لم يؤمن به . لأنه ما دام يريد فهم هذا الكتاب فلا بدّ له أن يقبل ابتداء أصله كما ورد فيه وكما بيّنه الذي أنزل عليـــه هذا الكتاب وهو

رسول الله محمد ﷺ .

ويمكن أن يتضح أصل القرآن في النقاط الآتية :

١ ـ ان الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون ومالكه وحاكمه ، خلق الإنسان في جزء يسمى « بالكوكب الأرضي » من أجزاء مملكته التي لا نهاية لها ، وأودعه قوى العالم والتفكير والإدراك ، وألهمه تمييز الخبيث من الطيب ، وأعطاه حرّية في الادارة والاختيار ، ومنحه سلطة للتصرف في الأمور كما يشاء ، وخوّله نوعاً من الإستقلال (Autonomy) واستخلفه في الارض .

٢ ـ وحينما عهد الله تعالى الى الإنسان بهذا المنصب الخطير ، أثبت في قرارة نفسه هذه المعاني ، إني أنا ربك وربّ هذا العالم ، وإلهك وإله هذا العالم ، وحاكمك وحاكم هذا العالم . فلا تكن في مملكتي هذه حرّاً طليقاً تركب رأسك ، ولا تكن عبداً لغيري ، فلا أحد غيري يستحق أن تطيعه وتعبده وتخضع أمامه . وإن الحياة الدنيا التي أعطيت فيها نوعاً من الاستقلال إنما هي فترة امتحان

ترجع إليّ بعد انتهائها فافحص ما عملت فيها ، وأفصل في أمر من نجح ومن رسب . وأصحّ منهج تختاره في هذه الدنيا : أن تتخذني إلهك الواحد وحاكمك الفرد ، وتعمل حسب ما أنزل من هدى ، وأن تعيش وأنت تشعر بأن الدنيا دار للامتحان ، وأن غرضك الحقيقي هو أن تنجح في الآخرة. وعليك أن تعلم أيضاً أن كل منهج يخالف هذا المنهج هو خطل وخطأ . وأنك إن اتبعت المنهج الأول (وأنت حر في أن تتبعه) فلن تتمتع في الدنيا فحسب بالأمن والاطمئنان ، بل سأنعم عليك حين ترجع إليّ ، بدار اسمها «الجنة » تجد فيها نعيماً مقيماً وراحة أبدية ، ولا يمسّك فيها نصب ولا لغوب . وإن سلكت منهجاً آخر غير هذا المنهج (وأنت حر في أن تسلكه) فلن تذوق في الدنيا فحسب وبال الفساد والقلق والدمار ، بل حينما تعبر هذا العالم إلى عالم الآخرة سيكون مصيرك إلى هاوية النار فيها عذاب خالد وألم دائم وغمّ أبدي .

٣ ــ أسكن الله مالك الكون النوع البشري في الأرض بعد أن ثبت في قرارة نفسه المعاني السابقة . كما أنه جلّ

شانه آتى الإنسان الأول وزوجه ـ آدم وحـــواء عليهما السلام ـ هدى من عنده ليتبعاه، هما وذريتهما في الأرض.ولم يخلق الإنسان الأول في حالة الجهل والظلام . بل إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم وحواء ليبدآ حياتهما في الأرض على حـالة من النور والعلم . فكان الانسان الاول يعرف ما هو الحق ، ويعلم ما ينبغي له علمه من قانون للحياة . وكان منهجه في الحياة طاعة الله (أي الاسلام) . ووصّى بدوره ذريتـه بأن لا يطيعوا إلا الله ولا يموتوا إلا وهم مسلمون . إلا أن الانسان قد حاد عن المنهج الصحيح (أي الدين القيم) في القرون المتعاقبة رويداً رويداً ، واتّبع السبل المعوجة والمناهـج المنحرفة المتضاربة . وضلّ عن الطريق السوي بعدم المبالاة به مرة وبمسخه بجحود ومكابرة مرة أخرى . فأشرك بالله في ذاتـــه وصفاته ذواتـــاً عديدة من السماء والأرض ، وهميـــة ومادية ، بشرية وغير بشرية. وخلط أنواعاً من الأوهـــام وضروباً من النظريات وألواناً من الفلسفات بنبع طاهر من العلم (أي عـلم الحق) الذي آتاه الله ،وصنع من ذلك مذاهب لا عدّ لها ولا حصر ،ونبذ وراء ظهره ما قرّره الله من مبادىء عادلة للأخلاق والمدنيـــة

(أي الشريعة) أو مسخها . ثم وضع كما أوحى له هواه وعصبيته نظماً ومناهج للحياة ملأت أرض الله ظلماً وفساداً وبوراً وشقاء .

٤ ـ إن الله الذي أعطى الإنسان ذلك الاستقلال المحدود ، لم يتدخل ـ بصفة كونه تعالى خالقاً ـ في ردّ من ضلّ وغوى من الناس إلى المنهج الصحيح بالقهر والقسر . كما أن المهلة التي منحها الله للانسان ليعمل في الدنيا بحرّية ، لم يكن ليناسبها أن يأخذه ويهلكه بمجرد شقّه عصا طاعته واتّباعه طريق البغي . ثم إن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على نفسه منذ بدء الخليقة أن يدبّر للانسان طرق هدايته مع إقرار استقلاله في فترة المهلة التي أعطاه إياها ، وتحقيقاً لما أوجبه الله تعالى على نفسه بإرادته المطلقة ، اصطفى الله من النوع البشري رجالاً آمنوا به وابتغوا مرضاته ، واتّخذهم مبعوثين له، وأوحى إليهم علم الحق ، وأنزل عليهم منهجاً صحيحاً للحياة ، وأمرهم بأن يدعوا الناس الى الصراط المستقيم الذي عدلوا عنه .

٥ ـ بعث هؤلاء الرسل إلى مختلف الأمم ومختلف

الأقطار ، واستمرت سلسلة بعثهم آلافاً من السنين، وكانوا آلافاً مؤلفة. وكانوا على دين واحد أي نفس المنهج الصحيح الذي علّمه الله الانسان منذ هبط الى الأرض. وكانوا يتبعون هدياً واحداً ، أي نفس المبادىء الخالدة العادلة للأخلاق والمدنية التي قررها الله تعالى للانسان في بداية الأمر. وكانوا يرمون الى غرض واحد اي دعوة النوع البشري الى دين الله وهدايته. ثم إن الذين قبلوا دعوتهم نظّموهم وجعلوهم أمة واحدة ، تتبع احكام ربّها وتطيع المنهج الإلهي في الدنيا ، وتسعى لمنع الناس من مخالفة هذا المنهج. إن رسل الله قاموا بتحقيق ما أُرسلوا به على أكمل وجه. إلا أن الذي حصل على مدار التاريخ هو انه لم يلتفت العدد الكثير من الناس الى دعوتهم. كما أن الذين آمنوا بدعوتهم واتبعوهم وأصبحوا أمة مسلمة قد أخذوا في الفساد والضلال على مرّ الأيام وكرّ الليالي. فمنهم من ضل عن الحق كل الضلال ، ومنهم من مسخ تعاليم الله وحرّف الكلم عن مواضعه وكتب فيها بيده.

٦ ـ وأخيراً بعث الله محمداً ﷺ في أرض العرب

بنفس المهمة التي بعث بها من سبق من الأنبيـاء والرسل . فكانت دعوته ﷺ لكافة الناس بما فيهم أتباع الأنبيـاء الذين خلوا من قبله . كانت مهمته ﷺ دعوة الناس كافة الى المنهج الصحيح ، وتبليغهم هداية الله من جديد ، وجعل من آمنوا بهذه الدعوة أمة واحدة ، تقيم نظام حياتها على هدى من الله ثم تخرج لهداية الدنيا وإصلاحها . وان هذا القرآن هو كتاب الدعوة وسفر الهداية الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ ، فيه هدى ونور ، يهـدي به من يشاء من عبـاده .

موضوع القرآن وبحثه الرئيسي وهدفه :

والآن وقد عرف القارىء « أصل » القرآن ،يمكنه أن يفهم ما هو موضوع هذا الكتاب ، وما هو بحثه الرئيسي ، وما هو هدفه المنشود :

فموضوعه « الإنسان » : ما هو مدار نجاحه وسعادته وما هو مدار خسرانه وشقائه .

وبحثه الرئيسي : أن النظريات التي وضعها الانسان

عن نفسه وعن الحيـاة الدنيا وعن نظام الكون وعن ذات الإله ، مدفوعاً بدراسته السطحية وتقديراته الخيـــالية وخضوعه لسلطان الأهواء ، ثم المواقف التي اتخـذها على أساس تلك النظريات، فإنها كلها في حقيقتها باطلة ومهلكة للانسان نفسه من ناحية المصير . وإنما الحق هو الذي علّمه الله الإنسان حـــين جعله خليفة له في الأرض . وبموجب ذلك الحق ليس من منهج من المناهج يقـــوم على الصحة ويتوصل الى العاقبة الحسنة إلا المنهج الذي ذكرناه فيما سبق وسميناه : « المنهج الصحيح » .

وهدفه : دعوة الانسان الى هـــذا المنهج الصحيح ، وتبيان لهدى الله الذي ضل عنه الانسانُ بعدم المبالاة ، أو شوّهه بدافعٍ من غروره ومكابرته .

والذي يدرس القرآن واضعاً هذه النقـــاط الثلاث الأساسية أمام عينيه يتبين له بدون ما غموض ، أن هـذا الكتـــاب لم يحد عن موضوعه وبحثه الرئيسي وهـــدفه المنشود ، حتى ولا قيد شعرة . وتجد مباحثه المنوعة تلتئم مع بحثه الرئيسي إلتئام الدرر الملونة الصغيرة والكبيرة في

سمط القلادة السندسي . إنه يحـــدّث عن السماء كيف
صنعت ، وعن الانسان كيف خُلِقَ ، وعن المشاهدات في
آثار الكون ، وعن الأمم الخالية وقصصها. إنه ينتقد أعمال
مختلف الأمم وسلوكها وعقائدها . إنه يوضـــح الشؤون
والمسائل التي هي وراء الطبيعة . إنه يتناول أموراً كثيرة
غير ما ذكرنا. لا ليدرّس الانسان علوم الطبيعة أو التاريخ
أو الفلسفة أو أي فن من الفنون أو أدب من الآداب، بـل
لكي يزيل ما عليه الناس من خطأ وسوء فهم عن الحـق ،
ويقرر في أذهـانهم الحقيقة الواقعية ، ويشعرهم بمـا يؤدي
إليـه المنهج الذي يخالف الحق من مصير بئيس وعاقبـــة
وخيمة ، ويدعوهم الى المنهج الذي يلائم الحق ويأخذهم الى
حسن المآب . ولهذا السبب نفسه هو لا يحدث عن كل هذه
الأمور إلاّ في أسلوب يتناسب مع هدفه ، والى حد يلزم له.
ومن دأبـه أنه يذكر هذه الأمور بقدر الحاجة ثم يعود الى
بيان هدفه وبحثه الرئيسي بغض النظر عن التفاصيل التي
لا علاقة لها بالبحث . ولذلك ترى حديثـــه يدور حول
« الدعوة » بدون التواء وبكل اتزان .

غـــير أنه من الصعب على الانسان أن يفهم الأسلوب البيـــاني للقرآن وترتيبه وأكثر مباحثه ما دام لا يعرف كيفية نزوله .

مراحل نزول القرآن :

ليس القرآن بكتاب أنزله الله تعالى على محمد ﷺ جملة واحدة ثم أمره بنشره ودعوة الناس الى ما فيـه من منهج خاص للحياة البشرية . كما أنه ليس بكتاب عرض فيـــه موضوعه وبحثه الرئيسي على غرار أسلوب التأليف الشائع. ولأجل ذلك لا تجد فيه الترتيب الذي هو من شأن المؤلفات الانسانيـة ، ولا الأسلوب البياني الذي هو من شان كتب الدنيا . وهذا الكتاب في حقيقة الأمر من نوع فريد ...

المرحلة الاولى :

وقصته أن الله تعالى قد اصطفى عبداً من عبـــاده في مكة ـ إحدى مدن جزيرة العرب ـ لرسالته ، وأمره أن يبدأ بدعوته في مدينته وفي عشيرته (قريش) ، وقد لقنـه

التعاليم التي لا بد منها للشروع في هذه المهمة . وهذه التعاليم الابتدائية كانت في معظمها تحتوي على ثلاث نواح :

أولاً : تعليم الرسول كيف يعدّ نفسه لتحقيق هـــذا الأمر الجليل وعلى أي طراز يسعى سعيه.

ثانياً : المعلومات الأولية عن الحق ، والرد الاجمالي على ما كان في أذهان الناس الذين يعيشون حوله من مغالطات وأخطـــاء عن الحق جعلت منهجهم في الحيـــاة في عمى وضلال .

ثالثاً : دعوة الناس الى المنهج الصحيح ، وإيضـــاح مبادىء الأخلاق الرئيسية التي يحتضنها الهدي الإلهي والتي في اتّباعها نجاح الانسان وسعادته .

كانت هذه المعاني الأوليـة تحتوي على شذور موجزة تناسب مرحلة انطلاق الدعوة في لغتها الرفيعـــة ، وفي معانيها السامية ، وفي حلاوتها المتناهية ، وفي تأثيرها البالغ وهي في أعلى درجات الذوق الأدبي الذي كان يساير مستوى ذوق المخاطب لتنطبع هـــذه الشذور الزمردية من النغم

الإلهي في قلوب القوم انطباع السهم في الصدور . ولتميل إليها الآذان مستجيبة لترنّمها الساحر ، ولتجري الألسن بترديدها لما فيها من جمال التناسب وحلاوة التنسيق .

ثم إن هذه الشذور كانت مصطبغة بصبغة الأوضاع المحلية الى حد كبير . وإن كان الحديث فيها يدور حول الحقائق الكونية الخالدة ولكن الدلائل التي كانت تساق لها، والشواهد التي كانت تشير إليها ، والنظائر التي كانت تؤتى بها ، كانت تلتقط كلها من البيئة المجاورة المألوفة للناس . فما جاء فيها من التاريخ فهو تاريخهم ، وما قصّ فيها من الأحداث فهي أحداثهم وتقاليدهم ، وما ذكر فيها من الآثار فهي مما كانوا يشاهدونه بأم أعينهم ، وما ردّد فيها من القول فهو عن مفاسدهم العقائدية ، ومساوئهم الخلقية ، وعيوبهم الاجتماعية . وذلك لكي تصير هذه الدعوة أوقع في نفوسهم وأقرب الى أذهانهم .

استغرقت هذه المرحلة الابتدائية من الدعوة حوالي أربع أو خمس سنوات . وردّ الفعل الذي ظهر في هذه المرحلة من دعوة النبي ﷺ كان يتجلى في ثلاثة أشكال :

١ ـ آمن جماعة من خيار الناس بهذه الدعوة الكريمة واستعدوا ليكونوا أمة مسلمة .

٢ ـ نهض العدد الكبير من الناس يناوئون هذه الدعوة ، إما لجهلهم أو انحرافهم وراء الأهواء والأغراض أو ولوعهم بما وجدوا عليه آباءهم .

٣ ـ بدأت هذه الدعوة الجديدة تتعدى حدود مكة وأهلها من قريش وتنتشر في نطاق أوسع نسبياً .

المرحلة الثانية :

ثم بدأت المرحلة الثانية من الدعوة . وقد نشأ في هذه المرحلة صراع عنيف بين الحركة الاسلامية وبين الجاهلية السائدة ، وامتدت سلسلته قرابة ثماني أو تسع سنوات ، لا في مكة فحسب أو بين قريش فحسب ، بل كل من كان يريد بقاء الجاهلية الأولى في معظم أقطار جزيرة العرب ، شمّر عن ساقه وكشّر عن أنيابه للقضاء على هذه الحركة بما يملك من قوة .

استخدم المعارضون جميع الوسائل والمكايد لقمع هذه الدعوة ؛ قاموا بدعاية كاذبة ، وألقوا بوابل من الاتهامات والشبهات والاعتراضات ، وقذفوا الوساوس المنوّعة في قلوب الناس ، وحاولوا صدّ الذين كانوا يجهلون أمر النبي عن استماع ما يقوله ، وانهالوا على الذين آمنوا بالله ورسوله بالوان من الظلم وأنواع من التنكيل ، وقاطعوهم مقاطعة اقتصادية ، ونغّصوا عليهم العيش حتى اضطر كثير منهم الى الهجرة من ديارهم الى بلاد الحبشة مرتين . وآخر الأمر هاجر جميعهم الى يثرب (المدينة المنورة) . وعلى رغم هذه المعارضة الشديدة والتي كانت في ازدياد مستمر ، بقيت الحركة في انتشار وازدهار . ولم يكن بيتٌ من بيوت مكة إلا وقد آمن فرد من أفراده .. وكان مما يزيد المعارضين عداء وحنقاً لهذه الحركة أن أصبح أشقاؤهم وأحفادهم وأبناؤهم وأخواتهم وأزواج أخواتهم يتّبعون دين الله . وليس ذلك فحسب ، بل أصبحوا يسترخصون كل نفس ونفيس في سبيله ثم نهضوا يقاتلون ذوي قرباهم .

ومن الطريف أن الذين كانوا يقطعون صلتهم بالجاهلية الأولى وينضمون الى هـــذه الحركـة الناشئة كانوا ممـن يعتبرون خيــــار مجتمعهم وزبدة قومهم ، وحينما كانوا ينخرطون في سلك الدعوة الجديدة كانوا يبلغـــون في صلاحهم وصدقهم واستقامة أخلاقهم الشأو البعيد ، حيث لم تتمالك الدنيا إلا الإقتنـــاع بسمو الدعوة التي كانت تستميلهم بشدة ثم تصنع منها ما تصنع .

وفي غضون هذا الصراع العنيف الطويـل ، كان الله تعالى ينزّل على نبيه بحسب المناسبات واقتضاء الحاجـة ، كلمــــات (آيات) هيّاجة في جريانها كالنهر الجاري وفي قوتها كالفيضان الهائل وفي تاثيرها كالنــــار المضطرمة . وفي هذه (الآيات) أخبر المؤمنون بواجباتهم الابتدائية ، وبُعث فيها الوعي الجمــــاعي الحركي ، وعُلّموا الورع والتقوى ومكارم الأخـــلاق وطهارة السلوك ، ولقّنوا مناهج تبليغ الدين القيّم وطرق إقامتـــه ، وشُجعوا على مواصلة الدعوة بوعد غـير مكذوب بالفوز بالجنة التي فيها نعـــيم مقيم . واستحثوا على الجهاد في سبيل الله بصـــبر

واستقامة ومعنوية عالية . وعُبِّئت قلوبهم بشوق دافق الى جنة عرضها السماوات والأرض ، ومُلئوا بحماسة دفعتهم الى مواجهة أقسى محنة والوقوف في وجه أعتى عاصفة من المعارضة .

هذا في جانب المؤمنين ، وفي الجانب الآخر أنذر الذين كفروا بالله وتمردوا على رسوله ، وحاربوا دعوته وأعرضوا عن الحق ، بما صارت إليه الأمم التي خلت من قبلهم وكانوا يعرفون قصصها وتاريخها. ودعوا للاعتبار بآثار المؤتفكات التي كانوا يمرون على أنقاضها مصبحين وممسين أثناء أسفارهم . وعرضت عليهم أدلة التوحيد والآخرة المستندة على الآيات التي كانوا يشاهدونها في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وكانوا يرونها ويشعرون بها في أنفسهم وفي حياتهم في كل آن . كما بيّن لهم بطلان موقف الإشراك بالله والادعاء بالاستقلال المطلق ، وجحود الآخرة والإصرار على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ، بدلائل ناصعة تستقر في القلوب وتنفذ الى الأعماق البعيدة من العقول . وأزيلت آخر شبهة عالقة

باذهانهم عن صحة الدعوة ، ورُدّ آخر اعتراض منهم برد معقول ، وحُلّ آخر تعقيد ذهني كانوا قد وقعوا فيه أو كانوا يوقعون غيرهم فيه .

وخلاصة القول أن الجاهلية حوصرت من كل جهة وضيّق عليها خناقها بشكل لم تبق لها معه أية مكانة في عالم العقل والحصافة والجدية . ثم أُنذروا ـ مع ذلك ـ بغضب الله وأهوال يوم القيامة وعذاب جهنم ، ووبّخوا على ما كانوا عليه من رذالة الأخلاق، ومنهج الحياة الباطل، وتقاليد الجاهلية ، ومعاداة الحق وإيذاء المؤمنين ،وعرضت عليهم المبادىء الأساسية للأخلاق والمدنية التي نشأت عليها ـ وستنشأ ـ حضارات صالحة طاهرة في العالم كسبت رضى الله في كل دور من أدوار التاريخ البشري .

هذه المرحلة نفسها كانت تحتوي على عدة مراحل جزئية ، وفي كل من هذه المراحل ظلت الدعوة تتوسع ويمتد نطاقها . وبالتالي ظلّ النضال يشتد، ونار المعارضة تتسعّر . وظلت الدعوة تواجه كل يوم شكلاً جديداً من العقائد والأفكار وتناضل نوعاً جديداً من الفئات المختلفة

في أخلاقها ومواقفها . ومن ثمّ فإن آيات الله كذلك زادت تنوعاً في بحثها وتلوّناً في عرضها . وهذا هو السياق التاريخي للقرآن المكيّ .

المرحلة الثالثة :

مضت على هذه الحركة ثلاثة عشر عاماً تكافح وتجاهد. وإذا بها تفوز بمقرٍّ لها في يثرب (المدينة المنورة) ودعت اتباعها من أنحاء جزيرة العرب الى هذا المقر، لتكوّن مجتمعاً مستقلاً وتستجمع طاقاتها في مركز واحد . فهاجر النبي ﷺ ومعظم أصحابه الذين اتبعوه بإحسان الى المدينة المنورة . وبذلك دخلت الدعوة الاسلامية المرحلة الثالثة :

انقلب الوضع في هذه المرحلة رأساً على عقب ، فالأمة المسلمة تمكنت من تأسيس دولة مستقلة ، وبدأ النضال المسلح من أصحاب الجاهلية القديمة، وبدأت الدعوة تواجه أمم الأنبياء السالفة (أي الأمة اليهودية والأمة المسيحية)، كما بدأت تتخلّص كذلك من المنافقين الذين تسربوا الى

الكيـان الداخلي للأمة الاسلامية . وبعد مقاساة الصراع العنيف والكفــاح المديـد عشر سنوات بلغت الحركـة الاسلامية في نهاية المطاف من القوة والسلطان درجة أصبح معها العرب كلهم خاضعين مستسلمين . وانفتحت أمامهـا أبواب بثّ الدعوة على الصعيد العالمي ، والقيـــام بحركة إصلاحية عبر الحدود . وقد اشتملت هذه المرحلة أيضـاً على عدة مراحل جزئية واجهت الدعوة في كل مرحلة منها حاجات تختص بهـا . وتحقيقاً لهذه الحاجات أنزل الله على نبيه ﷺ من الكلمات (الآيات) ما كان أُسلوبهـا يتنوع بتنوع الحاجة . فمرة كان أسلوبها أسلوب الخطاب الجلجل الرنان المتـــاجج بنار المشاعر ، وأخرى أسلوب الأوامر والمراسيم الملكية ، وثالثة أسلوب دروس المعلمّ ، ورابعة أسلوب تذكير المصلح الناصح . وجـــاء فيها كيف ينشأ المجتمع وتؤسس الدولة وتبنى المدنيـة الصالحـة . وعلى أيّ المبادىء والأنظمة تقام مختلف نواحي الحيـــاة . وبأيّ طريق يتعامل مع المنافقين ومع أهل الذّمة من الكافرين . وعلى أي لون توّطد العلاقات مع أهل الكتـــاب ، وماذا يختار من السلوك مع الأعداء المحاربين والأقوام المعاهدين.

وكيف تعدُّ هذه الجماعة المؤمنه المنظمة نفسها للقيام بمهمة خلافة الله في الأرض .

هذه الكلمات أو الآيات كانت تقوم بتوجيه المسلمين وتربيتهم على ما يرام ، وكانت تنبههم على مواطن ضعفهم وتحرّضهم على أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وتعطيهم دروساً في الأخلاق والسلوك تناسب واقعهم في الانتصار والهزيمة ، وفي المحنة والراحة ، وفي السرّاء والضرّاء وفي الأمن والخوف وما الى ذلك من حالات . وكانت تصنع منهم جماعة تتوفر فيهم كفاءة ليخلفوا الرسول ﷺ بحق ، ويتابعوا مهمته في الدعوة والاصلاح . هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كانت هذه (الآيات) تخاطب الذين حُرموا من الإيمان من أهل الكتاب والمشركين والكفار والمنافقين ، وتدعوهم الى الخير وفق حالة كل منهم وحسب موقف كل منهم من الدعوة وذلك بوسائل الاقناع وبالقول اللين والموعظة الحسنة ، وبالنصيحة البالغة ، والتقريع الشديد ، وبالتخويف من عذاب الله ، وباستخلاص جوانب العبرة والعظة من الأحداث والأوضاع

المتضمنة للدروس القاسية. وذلك لتقيم عليهم الحجة،وتسدَّ عليهم منافذ الأعذار . وهذا هو السياق التاريخي للقرآن المدني .

القرآن كتاب دعوة ومنهج حركة :

ويتضح مما ذكرنا آنفاً أن القرآن كان نزوله مقترناً بالدعوة وتطوّرها وسيرها . فنزلت منه قطع مختلفة ، نجماً نجماً ، وفق حاجات الدعوة المتجددة ومقتضاها الواقعي في كل مراحلها ومنازلها منذ بدايتها حتى اكتمالها. وذلك في فترة استغرقت ثلاثة وعشرين عاماً كاملاً . ومن البديهي إذن أن مثل هذا الكتاب يعوزه الترتيب التأليفي من النوع الذي يختاره الطالب في إعداد البحث لأجل الحصول على شهادة الدكتوراه . كما أن القطع المختلفة الأحجام التي كانت نزلت منسجمة مع تطور الدعوة ، ما كانت تنشر في رسائل وكتيبات ، بل كانت تلقى في خطاب من رسول الله ثم تتناقل مشافهة وتبلَّغ من فرد لفرد . لذلك ما كانت تصاغ على أُسلوب التأليف ، بل

كانت تعرض في الأسلوب الخطابي الذي لا ينسج على منوال محاضرات الأستاذ في الجامعة ، بل كان يشابه خطبة الداعية الذي عليه أن يستهدف إثارة العواطف بجانب مناشدته العقول ، وعليه أن يواجه كل نوع من أنواع العقليات ، وعليه أن يعمل لما تقتضيه دعوته وحركته في ظروف متباينة وأوضاع متضاربة . فمن إقرار الدعوة في سويداء القلوب الى مخاطبة العقول بمختلف النظريات الى استثارة الفيض من المشاعر ، الى كسر شوكة المعارضة ، الى تربية الأتباع وإصلاحهم ، الى نفخ الحماس في نفوسهم ، الى تحويل الأعداء أصدقاء أوفياء ، الى إرغام المنكرين على الاقرار ، إلى دحض حجة الجاحدين وقطع دابر نفوذهم الأدبي . وما الى ذلك من الأمور التي يجب على رائد الدعوة وقائد الحركة أن يقوم بها على أكمل وجه وأوفق منهج .

ونظراً لكل ذلك ، فإن الكلمات (الآيات والسور) التي أنزلها الله على رسوله ـ ﷺ ـ فيما يتعلق بمهمته الجليلة كانت في أسلوب خطابها على نفس الأسلوب الذي

يلائم ظروف الدعوة ويناسب واقعها الذى تعيش فيـــه.
ومن هنا لا يحسن بنـا أن نطلب منه الأسلوب الذي يخص
محاضرات الجامعة ودروسها .

سر التكرار في القرآن :

ومن هنـا يتضح وضوح الشمس في رابعة النار ، سر
ترديد بيانات القرآن بكثرة . إذ مما تقتضيه طبيعة الدعوة
أن لا تحدّث إلا بما يناسب المرحلة التي تعيش فيها ؛ ومـا
دامت تعيش فيها لا تتعرض لحديث يخص المراحـــل
المقبلة ، بـل تظل تردد حديثها عن المرحلة التي هي فيها
ولو استغرقت الشهور أو السنين . وقـد تتضجر الطبائع
وتسأم الأذن لو بقيت العبارة بعينها تتكرر ، وفي صياغة
واحـدة تتردد . لذلك فإن المباحث التي تخص مرحلة من
المراحل وتمس الحاجة الى عرضها مرة بعـــد أخرى كان
يجب أن تصـــاغ في كل مرة في ألفاظ مبتكرة وأساليب
ناضرة ومحـاسن بيانيـــة غضةّ طريةّ ، تشتهيها الأنفس
وتتلقفها القلوب . وبذلك تصبح كل مرحلة من المراحـل

متينة القواعد ، محكمة الدعائم ، مستقيمة البناء . ويجب فوق ذلك أن لا يعزب عن البال تلك المبادىء العـــامة والقواعد التي تعتمد عليها الدعوة في كل حين من الأحيان وفي كل وضع من الأوضاع منـذ الخطوة الأولى حتى تمامها وكمالها ، بل لا بد من أن تلفت إليها الأنظار في جميـــع مراحل الدعوة مهما كان الحال . وهذا هو السر في شمول جميع سور القرآن على موضوعات ثابتة ، ولكن في ألفاظ متجددة وأسلوب متنوع .

فمثلاً ما يتعلق بعقيدة التوحيد ، وصفـــات الله ، والآخرة ومسؤوليتها وعذابهـا وثوابها ، والرسالة والإيمان بالكتاب ، وتقوى الله والصبر ، والمصابرة ، والتوكل ومـا الى ذلك من حقائق أساسية فإنك لترى القرآن يعيد ذكرها ويردّد بيانهـا في جميع سوره المكية والمدنية ، لأن الحركة لا تستطيع الإغماض عنها أو التساهل فيهـا في أية مرحلة من مراحلها . ولو كانت هذه العقائد الأساسية وهنت في نفوس المؤمنين لما تقدمت حركة الإسلام بروحها الصحيحة وطبيعتها الفذّة .

كيف رتبت آيات القرآن :

وإذا سبرت غور ما سبق قوله لتوصلت الى جواب مقنع على ما يدور في خلدك من سؤال : لماذا لم يجمع النبي ﷺ القرآن حسب ترتيب نزوله عليه ؟

إن القرآن كان ينزل وفق الترتيب الذي سارت عليه الدعوة منذ بدئها حتى بلغت أوج الكمال . ويتضح من ذلك أنه لم يكن من الحكمة في شيء أن يختار لتدوين الأجزاء المنزّلة نفس الترتيب الذي كان ملتئماً مع سير الدعوة وتطورها، بل الأمر كان بحاجة إلى ترتيب جديد يكون أكثر انسجاماً وأشد تجانساً وأدق ارتباطاً مع الواقع الآني بعد اكتمال الدعوة وتمام النعمة. لأن المخاطبين الأولين لهذه الدعوة في بداية أمرها كانوا ممن يجهلون الإسلام بالكلية ، فلذلك غشاهم الوحي بأوليات التعليم وبديهيات الإيمان. ثم لما اكتملت الدعوة وبلغت ما شاء الله أن تبلغه أصبح مخاطبوها الأوّلون من الذين آمنوا بها وكوّنوا أمة مستقلة، أصبحوا مسؤولين عن متابعة الدعوة ومواصلة الحركة التي سلمها الرسول ﷺ لهم بعد

كمالها فكرة ومنهاجاً . وهكذا صار الأمر الأهم هو أن يدرك هؤلاء المؤمنون ، قبل غيرهم ، واجباتهم ومناهج حياتهم ، وأن يعرفوا الفتن والأمراض التي ابتليت بها أمم الأنبياء فيما مضى ، قبل أن يتقدموا بهداية الله الى البشرية التي ترزح تحت نير الضلال والغواية والانحراف .

وهناك حقيقة أخرى تتكشف للإنسان إذا ما وُفّق إلى معرفة أسلوب القرآن،وهي أن وضع الآيات المتجانسة في المباحث في موضع واحد لا يوافقه طبيعة هذا الكتاب . بل من عين ما تقتضيه طبيعته هو أن يجد القارىء أثناء دراسته للقرآن الآيات المكية (أي التي نزلت في مكة) تتخللها الآيات المدنية (التي نزلت في المدينة) والمواعظ الإبتدائية تحف بها الوصايا النهائية وتعاليم المرحلة الختامية تواكبها تعاليم المرحلة الإبتدائية ، وهكذا يلمح أمام عينيه منظر الإسلام الكامل وتخطيطه الشامل مشرقاً متلألئاً بصفة مستمرة ، ولا يبرز له من واجهة بعينها دون غيرها .

لو جمع القرآن على الترتيب الذي نزل عليه لما كان هذا

الترتيب مجدياً ومفهوماً للعصور التي تلت عهد النبـــوة ، بدون أن يضاف إلى القرآن تاريخ نزوله وتاريخ الظروف التي نزل فيهـــا كل جزء من أجزائه كملحق للقرآن . الأمر الذي كان ينافي الغرض الذي شاء الله لأجله أن يدون كلامه ويحفظ في مصحف . والله سبحانه وتعالى كان يريد أن يجمع كلامه خالصاً نقياً لا يشوبه شائبة من الزيادات ولا يمازجه كلام غيره . يرتّب على ما هو عليه من الإيجاز والإعجاز معنى وصورة ، لتتيسر قراءتـــه لكل فرد من الأفراد: الصغير والكبير ، الناشىء والكهل، الرجل والمرأة، الرجل العادي والعالم الضليع، في المدن والقرى، في كل زمان ومكان ، في كل حال وواقع . وليدرك جميـــع الناس على الأقل ــ مهما اختلفت درجات عقولهم ــ ماذا يريـد الله منهم وماذا لا يريده منهم . ومن الواضـــح أن لو أضيف إلى القرآن ، تاريخه المطول وجعلت تلاوته أمراً لازمـــاً مع تلاوة القرآن ، لضاع هذا الغرض .

ومما لا يختلف فيه اثنان أن الذين يعـــترضون على الترتيب الحالي للقرآن يظنون عن سوء فهم أن هذا الكتاب

قد أنزل إلى طلبة علم التاريخ وعلم الاجتماع .

وفيما يتعلق بترتيب القرآن يجب أن يعرف الدارس كذلك أن الترتيب الحالي ما قام به الذين جاءوا بعد النبي ﷺ ، بل هو توقيفي وضعه النبي ﷺ نفسه بتوقيف من جبريل عليه السلام. وكان من عادته ﷺ أنه كلما نزلت سورة من سور القرآن كان يدعو بعض كتّابه وكان يأمر بكتابتها ويأمر بوضعها عقب سورة كذا وقبل سورة كذا، وكذلك حين ينزل شيء من القرآن (أي آية أو بضع آيات) ولم يرد جعله سورة مستقلة أمر النبي ﷺ بوضعه في موضع كذا من سورة كذا . ووفق هذا الترتيب نفسه كان ﷺ يتلو القرآن في الصلوات وغيرها من المناسبات . ووفق هذا الترتيب نفسه كان أصحابه الكرام يستظهرون القرآن ويتدارسونه . ولهذا كان من الثابت تاريخياً أن اليوم الذي أكمل فيه نزول القرآن أكمل فيه ترتيبه. ومرتّبه هو الذي أنزله . والذي أنزل القرآن على قلبه رتّب القرآن على لسانه . وما كان لأحد غيره أن يتدخل فيه .

تدوين القرآن :

وبما أن الصلوات كتبت على المسلمين منـــذ البداية[1] وتعيَّنت قراءة ما تيسر من القرآن فيها . فلذلك بدأت في المسلمين حركة حفظه في الصدور، مقرونة بــنزوله على صاحب الوحي عليه الصلاة والسلام . وكلما كان ينزل منه شيء كانوا يتلقــونه ويستظهرونه عن ظهر غيب . ولم ينحصر حفظه بكتابتـــه في العسب وقطع الأدم وكسر الاكتاف[2] التي كان يكتب فيها كتَّاب النبي ﷺ تحت

---

(١) وليكن القارىء على ذكر أن الصلوات الخمس كتبت على المسلمين بعد البعثة بسنوات، أما الصلوات كعبادة فقد أمر بها المسلمون منذ اليوم الأول . ولم تمض على الاسلام ساعة لم تكن الصلوات فيها واجبة مطلوبة .

(٢) العسبُ بضم فسكون وبضمتين ايضـــاً جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوّص ويكتبون في الطرف العريض . والأدم بضمتين وبفتحتين أيضاً جمع أديم: وهو الجلد المدبوغ . والاكتاف جمع كتف : وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان .

رعايته ، بل كان يرتسم كذلك بمجرد نزوله على العشرات فالمئات ثم الآلاف فالملايين من الصدور ، ومن هنا ما كان لباطل أن يأتيه من بين يديه ولا من خلفه ليغيّر فيه ولو كلمة .

ولما ظهرت فتنة الردّة بعد وفاة النبي ﷺ قام الصحابة رضوان الله عليهم بمعارك دامية لقمعها وقطع دابرها . فاستشهد فيها جماعة كبيرة من قراء الصحابة الذين كانوا يحفظون القرآن كلّه . الأمر الذي بعث عمر رضي الله عنه على القول بأنه لا ينبغي الاعتماد على صورة واحدة في باب المحافظة على الذكر الحكيم ، بل يجب الاهتمام بحفظه في قراطيس الصحف مع حفظه في طيات الصدور . فذكر عمر رضي الله عنه ضرورة هذا الأمر لأبي بكر رضي الله عنه الذي تردد بادىء ذي بدء ، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله لذلك صدر أبي بكر . وكلّف زيد بن ثابت الأنصاري الذي كان من كتّاب النبي ﷺ وكان يكتب الوحي أن يتتبع القرآن ويجمعه . والطريقة التي قررت لاستكمال هذا الأمر الخطير هي أن يجمع كل

ما تركه النبي ﷺ من أجزاء مكتوبة في صحف من الرقاع والجلد ونحوها ، ويؤخذ كذلك ما يوجد عند أي واحد من الصحابة مما كتب من القرآن ، ثم يستعان بحفاظ الصحابة في ضبط المحفوظ . وبناء على شهادة اجماعية من هذه الوسائل الثلاث وبعد التثبت من عدم وجود أية غلطة في المكتوب والمقروء تسجل لفظة لفظة من القرآن. وبموجب هذه الطريقة المحكمة كتبت نسخة من القرآن في الصحف ، وأودعت عند أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها التي كانت تحفظ القرآن كله في صدرها . وأذِن لعامة المسلمين أن ينسخوا منها أو يقابلوا ما عندهم من المكتوب عليها .

وكانت لغات القبائل في الجزيرة العربية تختلف بعضها عن بعض في القراءات واللهجات شأن اختلافها باختلاف المدن والمديريات في بلادنا (باكستان) مع أن لسان جميعها واحد أي الاردو أو البنجاني أو البنغالي . والقرآن كان قد نزل بلغة قريش . ولكن أجيز في أول الأمر للقبائل الأخرى أن يقرأ أهل كل قبيلة القرآن

بلغتهم وبما جرت عليـــه عادتهم ، لأن ذلك لا يؤدي الى اختلاف معانٍ موجبـــة لاختلاف أحكامه . بل بذلك يسهل عليهم التلاوة وتلين لهم العبارة . ولما اتسع نطاق الفتوح الاسلامية ، وتعدّى العرب صحاريهم القاحـلة ، وفتحوا الأقطار الشاسعة من العالم، ودخلت الأمم الأخرى في دين الله ، واختـلط العرب بالعجم ، وتأثرت بـــذلك الاختـــلاط لغتهم ، خشي الناس حدوث أنواع من الفتن لو استمر الناس على تلاوة القرآن بلهجـاتهم وعاداتهم التي درجوا عليها ، كأن يسمع أحـــدهم غيره يقرأ كتاب الله بلغة لم يألفها هو فيظنُّه يحرّف القرآن معتمداً ، فيكفّره ويقتتل معه . أو يتدرج اختلاف الألفاظ والتـــلاوة الى فتح باب التحريف والتصحيف أو إن تفسد لغـــة بعض العرب باختلاطهم مع العجم فيصرفون القرآن على لغتهم الفاسدة ويشوهون بديع كلامه ورونق قراءته .

وحرصاً على إبعاد المسلمين عن تلك الفتن قرر عثمان رضي الله عنه على مشورة من أصحاب الرسول ﷺ ، أن تنسخ المصاحف من الصحف المعتمد عليها والتي ضبطت

في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وتفرق في البلاد الإسلامية ويمنـــع من التداول مـا سواه من القرآن المكتوب بقراءة أخرى أو لهجة مخالفة. ففعل عثمان ذلك وعهد الى جماعة من الصحابة بجمعها في مصحف واحد ، وكتب منـــه نسخاً كثيرة وزعت على الأمصــار ، وبعث مع كل مصحف من يرشد الناس الى قراءته .

إن المصحف الذي بين أيدينا اليوم هو على طِبْقَ رسم مصحف الصدِّيق الذي نسخ منه عثمان رضي الله عنه نسخاً عديدة تحت إشرافه ، وفرّق منها في المدن والأمصار . ولا تزال هذه النسخ المعتمد عليها محفوظة بعديد من الاماكن في الدنيا . والذي يشكّ في « تمام حفظ » الذكر الحكيم فله أن يشتري نسخة من المصحف الكريم من مكتبة في إفريقية الغربية ويقابله بسماعه مشافهة من أحد الحفاظ في جاوا ، ثم يقابله بمـا في المكتبات الكبيرة في العـــالم من المصاحف الأثرية التي كتبت في مختلف القرون منذ عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه الى يومنا هــذا . فاذا وجد فيه فرقاً ولو في كلمة من الكلمات أو في حركة من الحركات فمن واجبــه

أن يطلع على الدنيا بهذا « الاكتشاف التاريخي المدهش » .

وللمرتاب أن يرتاب في كون القرآن منزلاً من الله تعالى إن شاء . أما كون ما بأيدينا اليوم من القرآن هو عين القرآن بنصه وفصه الذي أُنزل على محمد ﷺ وأقرأه الناس فهذه ظاهرة تاريخية لا مجال للشك والارتياب فيها . لا تجد شيئاً مما توارثته الدنيا في التاريخ البشري الطويل يكون على ما عليه القرآن من الثبوت القطعي المحتوم . ومن يشك في صحته فقد يشك أيضاً في ظهور الامبراطورية الرومانية على الأرض المعمورة في عصر من عصور التاريخ، أو في الحكم المغولي في الهند قبل قرون ، أو في وجود شخصية « نابليون » وإبداء الشك في ظواهر تاريخية كهذه ليس من خصائص العلم والمعرفة وإنما هو من أمارات الجهالة والغباوة .

منهج لدراسة القرآن :

إن القرآن كتاب يرد على منهله الفياض عدد لا يحصى من الناس لأجل عدد لا يحصى من الأغراض . لذلك يتعذر

عليّ أن أقدم للدارس مقترحاتي في صدد دراسة للقرآن
تستهدف تحقيق مطالب وأغراض هذا العدد الهائل من
الواردين عليه . ولا يجذبني من هذه الكتل البشرية إلا
الذين أشم فيهم رائحة الحرص على فهم هذا الكتاب ومعرفة
مطالبه وتوجيهاته في شؤون الحياة الانسانية ومسائلها
المعقدة . فاحب أن أعرّف هؤلاء منهجاً لدراسة القرآن ،
ثم أشاطرهم حل المشكلات والمصاعب التي يواجهها كل
دارس بصفة عامة .

يجب ــ كخطوة أولى ــ على كل من يريد فهم القرآن،
سواء آمن به أو لم يؤمن أن يخلي ذهنه ما أمكن من جميع
ما استقر فيه من قبل من التصورات والنظريات، ويطهره
من سائر ما يكنه من الرغبات الموالية أو المناوئة ، ثم
يكبّ على دراسته بقلب مفتوح وأذن واعية وقصد نزيه
لفهمه . أما الذين يدرسونه واضعين طائفة من التصورات
في أذهانهم مقدماً فما يقرؤون بين دفتيه إلا تصوراتهم
أنفسهم . ولا يجدون شيئاً من رائحة القرآن . ولا يصلح
هذا المنهج لدراسة أي كتاب من الكتب،فكيف بالقرآن

الذي لا يفتح كنوز معانيه أبداً الذين يدرسونه باتباع مثل هذا المنهج .

منهج الدراسة التفصيلية الشاملة :

ثم إن الذي لا يريد من القرآن إلا معرفة إجمالية فعسى أن يكفيه دراسته مرة أو مرتين . أما الذي يريد أن يغوص في أعماقه ، ويدرك أسراره فلا يكفيه أن يدرسه أربع أو خمس مرات . وعليه أن يفزع إليه تكراراً ومراراً ، ويُقبل على دراسته إقبالاً لا ملل فيه ولا كلل ، وأن يدرسه كل مرة من وجهة جديدة ، وأن يأخذ معه - كطالب من الطلبة - الأدوات اللازمة من الدفتر والقلم ليسجّل ما يعنّ له من نقاط هامة خلال الدراسة . والذين يرغبون في دراسته على نهج قويم كما قلنا ، عليهم أن يستوعبوا قراءته في ختمتين لمجرّد أن يلمع أمامهم نظامه للعقيدة ومنهجه العام الذي يفاصل الدنيا عليه . كما عليهم أن يحاولوا خلال الدراسة الأولية تحقيق النظرة الإجمالية في مشاهد القرآن العامة ويتبينوا التصورات الأصلية التي

يقدّمها للناس ومعالم نظام الحياة التي يبينها على أساس هذه التصورات . وفي خلال هذه الرحلة الممتعة اذا خطر في ذهنهم سؤال فلا يستعجلون البتّ في شانه بل يقيّدونه في مذكرة ، ويواصلون مطالعتهم ملتزمين جانب الصبر والجدّ ، فهم سوف يعثرون غالباً على الجواب فيما يقبل من الصفحات . واذا عثروا عليه قيدوه كذلك في المذكرة أمام السؤال . وإذا لم يظفروا بالجواب خلال الدراسة الأولية يستأنفون دراسته كجولة ثانية ويكون الصبر حليفهم والتاني دثارهم . وأقول بناء على تجاربي : لا يكون من سؤال إلا وتجدون جوابه ، وما من معضلة الا وتبلغون حلّها في دراستكم العميقة الثانية . اللهم إلا في الندرة النادرة التي تتقاصر عنها أفهام الرجال .

هذا ، وبعد تحقق النظر الإجمالي الشامل في القرآن على ما أشرنا ، على الدارس ، أن يبدأ بدراسة تفصيلية للقرآن . وفي هذا الصدد يجب عليه أن يثبت في قرارة ذهنه كل ناحية من تعاليم القرآن التي يمرّ بها أثناء الدراسة ، فيحاول ـ مثلاً ـ أن يعرف ما هو المثل الانساني الأعلى

الذي يحبه القرآن ، وما هو النموذج الانساني الذي يكرهه ويبغضه . وتحقيقاً لهذا المطلب يسجِّل في مذكَّرته خصال « الانسان المطلوب » في نظر القرآن في عمود ، وخصال « الانسان المرفوض » في نظره في عمود مماثل وجهاً لوجه . كما يحاول أن يعرف ـ كمثل آخر ـ موجبات نجاح الانسان وسعادته حسب مقياس القرآن ، والأسباب التي يعتبرها مبعث الهلاك والدمار ومدعاة الخسران والشقاء . وأصح طريقة لمعرفة هذا المطلب أيضاً ، بأبعاده الشاسعة وتفاصيله الشاملة ، أن يقيم في مذكرته عمودين مماثلين : أحدهما لموجبات السعادة ، والثاني لموجبات الخسران ، ويسجل كل ما يصل اليه في هذا الموضوع . وقياساً على ذلك ينبغي له أن يقيد حسب ما ذكرنا جميع تعاليم القرآن الحكيم في كل مسالة من مسائل الحياة من العقائد والأخلاق والحقوق والواجبات ، والاجتماع والمدنية ، والاقتصاد والسياسة ، والتشريع ونظام الجماعة ، والحرب والمهادنة وما الى ذلك ، لكي يستبين على أي شكل تتكون كل شعبة من شعب الحياة ، ثم على أي شكل تتكون الحياة الاسلامية بعد توحيد هذه الشعب وتكييفها في الاطار العام.

منهج دراسة مسألة بعينها :

ثم إذا أراد الانسان أن يتبين وجهة نظر القرآن في مسألة من مسائل الحياة فيستحسن له أن يطالع ما كتب فيها قديماً وحديثاً بكل إمعان ، ويحدّد بوضوح ما لهذه المسألة من نواح اساسية ونقاط رئيسية ، ويتعرف كذلك ما هو مبلغ تفكير الانسان ومدى ما وصل إليه في هذه المسألة عبر التاريخ ، وما هي جوانبها التي تتطلب حلولاً ، وما هي النقطة التي لم يستطع التفكير الإنساني تخطيها حتى اليوم . وإذا حقق ذلك ، فله أن يدرس القرآن واضعاً أمام عينيه الجوانب التي تتطلب الحلول في هذه المسألة . ومما جرّبته أن الإنسان إذا درس القرآن باحثاً في مسألة من المسائل على نحو ما ذكرت ، فإنه يفاجأ بالردود على أسئلته في آيات قد قرأها عشرات المرات من قبل ولم يخطر بباله أن تلك الآيات تكمن فيها هذه الردود .

شروط أساسية لدارس القرآن :

ومهما يتخذ الإنسان من التدابير ويستخدم من

الوسائل لفهم القرآن فإنه لا يصـــل إلى جوهر القرآن وروحه كما ينبغي ، ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء بـــه القرآن .

إن القرآن ليس يحوي نظريات مجردة وأفكاراً محضة حتى تدرسه جالساً على الأريكة ثم تفهم جميع مطالبـــه . كما أنه ليس بكتـــاب يبحث في اللاهوت فتحل جميع أسراره ومكنوناته في المعاهد والزوايا . إن هذا الكتاب ، كما قلنا في مستهل المقدمة كتاب دعوة وحركة وبمجرد نزوله أخرج رجلا وادعا دمثا ، سليم الفطرة كريم الشيم ومحب للسكوت ، من زاوية الانعزال ، وأوقفه في مواجهة العـالم الذي كان قد انصرف عن الحق ، وجعله يقـــارع الباطل ويحارب أئمة الكفر وقادة الفسق ورواد الضلال . إن هذا الكتاب انتزع كل روح سعيدة وكل نفس زكيـة من كل بيت وجمعها تحت لواء صاحب الدعوة . إن هـذا الكتاب اخرج غيظ كل فتاّن مفسّد وجعله يقاتل أنصار الدعوة ليهلك من هلك عن بيّنـــة ويحيى من حيّ عن بينـة .

إن هـــذا الكتاب هو الذي قام بتوجيـــه الحركة الاسلامية الهائـــلة خلال مدة ثلاثة وعشرين سنة ، والتي بدأت عملها من صرخة فرد واحد وانتهت في نهاية المطاف الى اقامة الخلافة الإلهية في الأرض . وهـــذا الكتاب هو الذي تولى وضع مخططات الهدم ومشاريع البنـــاء في كل مرحـلة من المراحل وفي كل خطوة من الخطوات خلال المعركة المديدة الضارية بين الحق والباطل .

إذن فكيف يتاتى لك اليوم أن يتجلى لك جميع ما يضمر هـذا الكتاب من أسرار وحقائق بمجرد أن تمر على حروفه وتنطق بكلماته ، وبدون أن تنزل الى ميـــدان الصراع بـــين الدين والكفر ، وتغبر قدميك في معركة الإسلام والجاهلية وبدون أن يصادفك المرور بمـــنزل من منازل هذا الكفاح .

لا تستطيع أن تفهم مطالب القرآن ومعانيـه البعيدة الغور إلا حين تحكمَّ هذا الكتاب وتبـــدأ بالدعوة الى الله وتخطو جميع خطواتك كما يوجهك وكيفما يعلمـــك .

ومن هنا لا بد أن يستقبلك جميع ما استقبل حامليه من التجارب والمحن : تشاهد مشاهد مكة والحبشة والطائف ، وتواجه المرحل الممتدة من بدر الى حنين الى تبـــوك ، وتتشابك مع « أبي جهل » و « أبي لهب » وتلاقي المنافقين واليهود ، وترى وتختبر كذلك كل النماذج الانسانيـــة ماراً بالسابقين الأولين الى المؤلفة قلوبهم. فهذا سلوك فريد لا يماثله أي نوع من السلوك ، وأسميه « السلوك القرآني » ومن شانه أنه كلما مررت بمنزل من منازله تطالعك آيات وسور من القرآن تحيطك علماً بأن هذا هو المهبط الذي نزلت فيه ، وجاءت فيه بكذا من التوجيهات والتعاليم . وفي ذلـك الحين لا يستبعد أن يغيب عن نظر « السالك » شيء من اسرار اللغة والبلاغة والمعـاني والبيان . إلا أنه يستحيل أن يضن القرآن بالكشف عن جوهره وروحـه أمام ذلك « السالك » .

ووفقـــاً لنفس المبدأ لا يستطيع الانسان أن يدرك مغزى أحكـــام القرآن وتعاليمه الخلقية وتوجيهـــاته الاقتصادية والمدنية ومبادئه ونظمه في مختـــلف نواحي

الحيـاة ما دام لا يطبقها في الحياة ، لا يدرك مغزاها فرد يعيش في حل منها في حياته الفردية ولا تدركه أمة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكاً يخالف منهجها .

القرآن كتاب هداية للبشرية كافة :

وكل رجل شريفاً كان أو وضيعاً يعـــلم أن القرآن أعلن انه جاء لهداية النوع البشري باجمعه . ولكن اذا تناوله أحد ليدرسه يرى أنه لا يخاطب إلا من وجـــد من العرب حين نزوله . واذا كان يدير وجهه أحيـــاناً الى كافة الناس فإن معظم ما يقول يرجع الى ما يختص بذوق العرب وحـــدهم وبيئتهم وحدهم وتاريخهم وتقاليـدهم وحدهم . والانسان حين يرى ذلك يبدأ يتساءل : إن كان الكتاب الذي أُنزل لهداية كافة البشر لماذا يعنى عناية كبيرة بعناصر وقتيـة ومحلية وقوميـــة ؟ بـل يقع بعض الذين يجهلون حقيقة الأمر في شك ويقولون : ربما نزل هـــذا الكتـاب لاستصلاح من يعاصره من العـرب ثم حمل فيما بعـد مالا يحتمله من دعوة عالمية وهداية لكافة الناس الى

الأبـد .

وأقول للذي أثار هذا الاعتراض لا لمجرد الاعتراض ، بل أراد معرفة الحقيقة : ينبغي أن يدرس الكتـــاب ويخط تحت النصوص التي دعا فيها القرآن الى عقيدة أو فكرة أو تصور ، أو عرض فيها مبـــدأ في الأخلاق أو قاعدة في الحياة العملية تختص بالعرب وحدهم ، وتنحصر بحكم الزمان والمكان في حدود لا تتعداها !!! اما مجرد كونه يخاطب أناساً عاشوا في زمان بعينه ، ويتناول مـا حولهم من الموجـــودات كمواد للاستشهاد يبني عليها دلائـــل التوحيد فهذا وحده لا يكفي لأن يحكم بان دعوته كانت تختص بزمن دون الأزمان ونداءه كان موجهـاً الى قطر دون الأقطار . وبدلاً من ذلك ينبغي أن يتبين مثـــير الاعتراض أن الذي جاء به القرآن في رفضه لعقيدة الشرك يصدق على كل نوع من الشرك في الدنيـــا كما صدق على شرك العرب .

ألا يحسن بنا بعد ذلك أن نلجأ في استصلاح عقائـــد

المشركين في كل عصر ومصر الى نفس الدلائل والحجج التي جاء بها القرآن؟ ألا يجوز أن نستعمل أسلوب القرآن فيما يستدل به على إثبات التوحيد في كل زمان ومكان بعد تعديل يسير ؟

إذا كان الجواب نعم فليس من مبرر للقول بان دعوة القرآن الخالدة العالمية دعوة آنية ومحلية استناداً الى انها عرضت على قوم بأعينهم في زمن بعينه . وما من فلسفة أو نظام للحياة أو مذهب من المذاهب عرضت جميع تفصيلاته من الألف الى الياء في أسلوب نظري محض (Abstract) ولم تتمثل في أوضاع واقعية أو صور حية .

هذا النوع من التجريد لا يمكن أن يوجد في عالم النظريات . وإن افترضنا وجوده فإن النظرية التي تعرض على هذه الصورة من التجريد لا تعدو حبراً على الورق ويستحيل أن تنساب في حياة الناس وتتحول الى نظام عملي .

ثم إذا أريد تعميم حركة عقائدية وخلقية ومدنية على صعيد عالمي فلا يلزم لذلك أبداً أن تجعل الدعوة عالمية من البداية . بل المنهج الصحيح الوحيد لذلك هو أن تنشر الحركة ما تدعو إليه من عقائد ونظريات ومبادىء في البلد الذي نشأت فيه ، وأن تقرها في أذهان أناس يعرف القائمون بالحركة لغتهم وطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وأن تطبقها في الحياة العملية وتقيم عليها نظاماً موفقاً للحياة ثم تعرضه على الدنيا كنموذج يحتذى به .

وبهذا الطريق وحده تلتفت إليها الأمم الأخرى ويستبق إليها أصحاب العقل الراجح والرأي السديد من تلك الأمم ليتلقوها ويسعوا لترويجها في بلدانهم . وعلى هذا فمجرد عرض نظام ما للعقيدة والمنهج على أمة دون غيرها بادىء ذي بدء وإن استنفد هذا العرض كل طاقات التدليل والاحتجاج لإقناع تلك الأمة وتثبيتها ــ ليس دليلاً على كون ذلك النظام قومياً محضاً .

والخصائص التي تميز النظام القومي من النظام العالمي،

والنظام المؤقت من النظام الخالد ، هي أن النظام القومي إما أن يدعو الى تفضيل شعب على غيره ويطالب له بحقوق ومميزات خاصة ، وإما أن يؤمن بمبادىء ونظريات لا تستطيع أن تروج وتزدهر في الشعوب الأخرى . وعلى العكس من ذلك فان النظام العالمي يؤمن بالمساواة بين الناس ويعطي الجميع حقوقهم بدرجة متساوية ، وتكون مبادئه عالمية الصبغة ، عالمية الأهداف والمثل . ثم ان النظام المؤقت ينشىء بناءه على قواعد تفقد قابليتها للعمل بمرور الأيام ، بينما النظام الخالد تنطبق مبادئه على جميع الظروف المتطورة .

فهل من دارس للقرآن يدرسه واضعاً امام عينيه الخصائص المشار إليها . ثم يستطيع ان يحدد لنا مآخذ يبني عليها ظنه في كون النظام المعروض في كتاب الله نظاماً وقتياً وقومياً ؟!

القرآن كتاب مبادىء عامة :

ومن الدارسين لهذا الكتاب من قد أُلقي في سمعه كذلك

ان هذا الكتاب عبارة عن «مرشدات للتوجيهات التفصيلية» و « دليل للدستور » . ثم اذا انصرف الى قراءته لا يجد فيه احكاماً وأنظمة تفصيلية عن الاجتماع والمدنية والسياسة والاقتصاد وما الى ذلك . بل ان الواجبات الهامة كالصلاة والزكاة التي يعيد الكتاب ذكرها ويؤكد عليها بشدة لم يدون لها أحكام تفصيلية . ومثل هذا الأمر يشوش ذهنه ويدفعه الى التساؤل : ما هو المراد من كونه مرشداً للتعاليم الالهية .

وكل ما ينشأ هنا من تشويش في ذهن الإنسان مرده أن يغيب عن باله احدى نواحي الحقيقة ، وهي أن الله لم ينزل الكتاب فقط ، بل أرسل معه رسوله ايضاً . وأقول على سبيل التمثيل : اذا كان المشروع المقصود هو وضع تصميم لبناء وتقديمه للناس لينشئوا البناء وفق هذا التصميم . ففي هذه الصورة لا بد لنا من تخطيط مطول يرشدنا الى كل جزء من اجزاء البناء . اما اذا ولي احد المهندسين من قبل الحكومة ومعه التوجيهات المعمارية العامة ، فان هذا المهندس يشيد البناء وفق هذه التوجيهات ، ومن الخطل — اذن — ان نصرف اعيننا عن المهندس وما شيّده من البناء ، ثم

ننشد تفصيلات الجزئيات في التصميم ونشكو نقصه إن لم نجدها فيه .

وكذلك القرآن ، ليس هو بكتاب الجزئيات ، بل هو كتاب المبادىء والقواعد الكلية . ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الاسلامي بوضوح ثم يثبتها تثبيتاً قوياً بكلا الطريقتين : التدليل العقلي والتحريض العاطفي . أما ما يتعلق بالصورة العملية للحياة الاسلامية فإنه لا يرشد الإنسان إليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية عن كل ناحية من نواحي الحياة ، بل إنه حدّد الحدود الأساسية لكل شعبة من شعب الحياة ، ونصب معالم جلية في بعض النواحي تشير الى خطوط عريضة يجب أن تؤسس عليها هذه النواحي وفق مرضاة الله .

حول الخلاف في تفسير القرآن :

وكان من مهمة النبي ﷺ تكييف الحياة الاسلامية في ضوء هذه التعاليم . ولم يبعث ﷺ إلا ليحقق نموذجاً من

السلوك الفردي ومن المجتمع والدولة يكون ترجمة حيـــة تتمثل فيها المبادىء التي قررها القرآن .

وهنـا سؤال آخر يخالج أذهان الناس : القرآن أنحى باللائمة على الذين اختلفوا بعد أن جاءهم الهـــدى من الله تعـالى ، وتفرقوا في الدين . هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر توجد خلافات في تفسير أحكام القرآن وتأويلها لا بين المتاخرين فحسب ، بل بين التابعين ومن تبعهم حتى بـين الصحابة أنفسهم ، الى درجة أنك لا تجد آية من آيات القرآن اتفق المفسرون على قولٍ واحد في تفسيرها . أليس هؤلاء الناس يستحقون نفس اللوم الذي ورد في القرآن ؟ إذا كان الجواب لا ، فاي اختلاف وأي فرقـــة تلك التي ينكرها القرآن وينحي باللائمة على أصحابها .

هذه قضية متشعبة كثيرة الجوانب لا يجـــدر بنا في هذا المقـــام أن نتناولها بالبحث المبسط . وحلاً لما يساور ذهن عامة الناس من التعقيد يكفي الإشارة الى أن القرآن لا يمنـع الخلاف النزيه البنّاء الذي يقع بين القـــائمين على تفسير الأحـــكام والقوانين ، بناء على دراساتهم الجدّية

المخلصة، بينما هم يلتقون فيما يرجع الى أصل الدين ويتفقون فيما يتعلق بنظام الجماعة الاسلامية . أما الخـــلاف الذي يذمه القرآن فهو الذي نشأ من نفوس ذات هوى وعقول معوجة ، وانتهى به المطاف الى التكتل والطائفية الممقوتة والنزاع الداخلي . وهذان الخلافان لا يتجانسان في أصلهما ولا يتشابهان في نتائجهما فكيف نحكم عليهما بحكم واحد. أما الخلاف من النوع الأول فهـو جوهر الرقي والتطور ومصدر الحياة ونضارتها ، ولا بد من أن يوجـــد في كل مجتمع مكون من أهل الرأي والفكر . ووجوده دليـــل الحياة والحيوية ، ولا يخلو منه إلا مجتمع يتكون من أناس لا يتمتعون برجاحة العقل ووفرة الذكاء بل هم تماثيـــل خشبية ودمى لا حياة فيها . وأما الخلاف من النوع الثاني فيعلم جميع أهل الأرض انه ما ظهر في كتـــلة بشرية إلا ومزقهـــا شر ممزق وحطمها أشنع تحطيم . فظهوره من أمـارات المرض لا من بشائر الصحة ، ولم تكسب أمة من الأمم منه إلاّ نتائج وخيمة وعواقب مؤلمة .

ويتجلى ما بين هذين النوعين من الخلاف من فروق في الصورتين التاليتين :

في الصورة الأولى : يُجمع جميع الناس على طاعة الله

ورسوله ، ويعتقدون في الكتاب والسنة مصدرين للأحكام والتشريعات . ثم يختلف إمامان من أئمة الاجتهـــاد في تحقيق إحدى المسائل الفرعية او قاضيان في فصل إحدى الدعاوى . ولا يجعل أحدهمـا المسألة التي اختلف فيها أو الرأي الذي يراه عماداً للدين ، ولا يعتبر الذي يخالفه في ذلك خارجـاً عن دائرة الدين . بل كلاهما يشبع رأيه بمـا عنده من الدلائل والمراجـــع الى أقصى ما يستطيع ثم يتركه للرأي العام إن كان رأيه يتعلق بمصالحه ، والقضاء العـالي في البلاد ان كان الموضوع يرجع الى التحكيم ، ولنظـــام الجماعـة الاسلامية إن كانت القضية قضية اجتماعية، فيقبل رأي أحدهما أو كليهما .

وفي الصورة الأخرى : يجري الخلاف حتى في أسس الدين ، أو يختار عـالم أو متصوف أو مفت أو مجـادل أو زعيم رأياً في مسألة لم يجعلها الله ورسوله من مسائل الدين الأساسية ، ثم يجعله بتأويلات بعيدة من المسائل الأساسية للدين ، ويحكم على كل من يخالفه في ذلك بخروجـــه عن دائرة الاسلام ، ويشكل من أنصاره عصبة ويقول إنـ هذه هي أمـــة مسلمة أصيلة ومن شذ عنها شذ في النار ،

وينادي صارخاً : « عليك الانضمام الى هذه العصبة ان كنت مسلماً والا فلست بمسلم » .

والقرآن حينما يذم الاختلاف والتكتل والطائفية والعصبية يذم الصورة الثانية . أما الخلاف في الصورة الأولى فنجد له أمثلة عديدة حتى في عهد النبي ﷺ . وأنه ﷺ لم يقره فقط بل استحسنه . لأن هذا الخلاف كان يبشر بوجود طاقات وكفاءات من التفكير والتأمل والتحقيق والتحري والتحسس والفهم والفقه في كيان الجماعة الاسلامية . وكان يدلل على أن أصحاب الرأي والكفاءة في الجماعة يولون اهتمامهم الكبير للدين وأحكامه. وأن كفاءاتهم لا تتلمس حلولاً لمسائل الحياة من خارج الدين بل تتلمسها في داخله . وأن الجماعة بجملتها تأخذ بمبدأ جدير بأن يكتب بالتبر بدل الحبر : وهو الالتقاء على مبادىء الدين لكي تحافظ على وحدتها ، ثم إعطاء أهل العلم وقادة الرأي حريتهم في الاجتهاد والاستنباط والتحقيق في حدود سليمة لكي توفر لنفسها فرص التطور وجوانب التقدم .

هذا ما عندي والعلم عندالله ، عليه توكلت واليه أنيب.

المحتوى

	صفحة
كلمة المترجم	٥
أسلوب الوحي وأسلوب البشر في الكتابة	٧
معلومات أولية ضرورية	١٠
أصل القرآن	١٤
موضوع القران وبحثه الرئيسي وهدفه	٢٠
مراحل نزول القرآن	٢٣
المرحلة الأولى	٢٣
المرحلة الثانية	٢٦
المرحلة الثالثة	٣١
القرآن كتاب دعوة ومنهج حركة	٣٤
سر التكرار في القرآن	٣٦
كيف رتبت آيات القرآن	٣٨
تدوين القرآن	٤٢
منهج لدراسة القرآن	٤٧
منهج الدراسة التفصيلية الشاملة	٤٩
منهج دراسة مسألة بعينها	٥٢
شروط أساسية لدارس القرآن	٥٢
القرآن كتاب هداية للبشرية كافة	٥٦
القرآن كتاب مبادى عامة	٦٠
حول الخلاف في تفسير القرآن	٦٢

طبع هذا الكتاب بالأوفست
في مطابع وزنكوغراف الأهلي - بيروت
شارع سوريا - تجاه دائرة السير
تلفون ٢٤٤٧٦٤

تطلب جميع منشوراتنا من :

• **دار القلم** الكويت

شارع السور - عمارة السور - بجوار وزارة الخارجية

ص ب ٢٠١٤٦ هاتف ٤٢٥١٦٠

• **الشركة المتحدة للتوزيع**

بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة

ص ب ٧٤٦٠ هاتف ٢٩٥٥٠١



الثمن : ١٧٥ فلس